السيرة من الكتاب والسنة

د. عبد المنعم القيعي

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وأصحابه ..

(وبعـــد)

فالسيرة التحليلية من الكتاب والسنة — مادة جليلة القدر ، خالية من الزيف . وتدور حول تجميع النصوص من الكتاب والسنة في أي موضوع يرد بحثه .

ولا خفاء في أن سيرة النبي قد تناولها كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين . واختلفوا في مناهج الكتابة ومدى مطابقتها للمنهج العلمي .

وطريقة التجريد والبدء بالملاحظة والتجربة ، ثم بالموازنة والإستنباط هي الطريقة العلمية الفذة للوصول إلى الحقيقة .

بيد أن التحرر وحده لا يكفي — فإن مادة البحث قد تختلف .. فهناك المؤرخون القدامى ، وهناك شهود العيان والرحالة . ومنهم المؤرخون العموميون والمتخصصون في قطر معين أو بلد معين أو جنس من الأجناس أو ترجمة من التراجم .. ومن بينهم أصحاب الأهواء والنزعات والعواطف . وفيهم المتجردون المتحررون من هذه البواعث . وعليه — فمادة البحث لا تكفي من حيث هي لضبط الصواب . ولا غرابة أن نجد اختلافاً كبيراً بين العلماء في المادة التاريخية . لذلك كانت دراستنا للسيرة مستمدة من الكتاب والسنة .. فلا هي أبحاث تاريخية ولا هي تحليل تاريخي ، وإنما هي دراسة تحليلية للكتاب والسنة ، تربط الأحداث بأصولها .

وإذا كان من الضرورى من حيث التسديد والدقة لتحقيق الحوادث رؤية مواطنها ، فإن من أشد الضرورة درس وثائقها التى عاصرتها دراسة تتصل بأسبابها وخصائصها وأهدافها وانطباعاتها .

ولأجل أن نفقه الحوادث فقها صحيحا — يجب التأكد من وقوعها ، ثم فهم طبيعة الحادثة ومدى صلتها ببيئتها وزمانها .

ويتلخص منهج الدراسة التحليلية فى جمع المواد الصحيحة المتميزة بالمشاهدة أو التخصص ، ثم ترتيبها وتحقيقها ونقدها ، والموازنة بينها وبين غيرها .

وأهم المراجع لدينا كتاب الله وسنة رسوله ، وسنسير فى بحثنا حسب المنهج المقرر . .

ومن المعلوم أنه قبيل الإسلام — قد اغتالت الوثنية كل الحضارات فلم تبق منها شيئا ذا قيمة ، وأمس الإنسان عبدا مسخر الأدنى شيء فى السموات والأرض .

وماذا بعد أن تقدس العجول والأبقار ، وتعبد الأخشاب والأحجار ، وتطبق شعوب بأسرها على هذه الخرافة ؟ . .

وما أكثر الوثنيين فى الدنيا ، وإن لم يلتفوا حول نصب . وما أسرع الناس إلى تجاهل الوجود الحق وربه الأعلى .

ولقد كان يحيط ببلاد العرب إما عباد النار ، وإما أهل كتاب يأخذون من الدين قشوره ويتركون لبه وحقائقه .

وجاء الإسلام بعقيدة التوحيد ربط الوجود بخالقه (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) .

وحياة نبى الإسلام قبل البعثة معروفة واضحة لدى المؤرخين والباحثين . وطبيعى أن هذه الفترة لم يتحدث عنها القرآن إلا فى إشارات يسيرة مثل قوله تعالى (ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجد عائلا فأغنى) . .

ويعنى بالضلال — ضلاله فى الطريق ، أو توقفه فى تأملاته عن الوجود قبل البعثة .

أما الضلال بمعنى التخبط والبعد عن الحق — فإن رسول الله معصوم عنه بقوله (ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى) .

وعليه فلا تعارض ، إذ لا ضلال بعد هداية الله (ومن يهدى الله فهو المهتد) .

ومحمد ﷺ ذو نسب رفيع عن الدنايا . عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : خطب النبى فقال : (أنا محمد بن عبد الله . بن عبد المطلب . بن هاشم . بن عبد مناف . بن قصى . بن كلاب . بن مرة . بن كعب . بن لؤى . بن غالب . بن فهر . بن مالك . بن النضر . بن كنانة . بن خزيمة . بن مدركة . بن إلياس . بن مضر . بن نزار . بن معد . بن عدنان . وما افترق الناس فرقتين إلا جعلنى الله فى خيرها ، فأخرجت من بين أبوى فلم يصبنى شيء من عهد الجاهلية ، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم ، حتى انتهيت إلى أبى وأمى ، فأنا خيركم أبا)(1) .

فانظر إلى تلك العناية . وصدق الله إذ يقول (الله أعلم حيث يجعل رسالته) (الله يصطفى من الملائكة رسلا ، ومن الناس . إن الله سميع بصير) .

(1) رواه البيهقى .

وروى أحمد فى مسنده عن ابن عباس: (ولد ﷺ يوم الأثنين ،واستنبىء يوم الإثنين ، وتوفى يوم الإثنين ، وخرج مهاجرا من مكة إلى المدينة يوم الإثنين ، وقدم المدينة يوم الإثنين ، ورفع الحجر الأسود يوم الإثنين).

لعل وقوع هذه الأمور فى يوم واحد ، كان مصادفة ، لأن اليوم المفضل عندنا هو يوم الجمعة.

ولقد حدد بعض الباحثين يوم مولده — بالعشرين من نيسان «أغسطس» سنة ٥٧٠ ميلادية . ولا مانع فإن من الممكن أن يكون موافقا هذا التاريخ للثانى عشر من ربيع الأول ، لما بين السنة العربية والميلادية من تفاوت فى عدد الأيام.

ولقد قال النبى ﷺ :(لى خمسة أسماء . أنا محمد. وأنا أحمد. وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى. وأنا الماحى الذى يمحى به الكفر. وأنا العاقب الذى لا نبى بعدى)(١).

ويجب التنبه إلى أن له أسماء أخرى ، لم تذكر فى هذا الحديث — مثل — (وأنه لما قام عبدالله يدعوه. ومثل صفاته كالبشير النذير. والرؤوف الرحيم. وغير ذلك).

فأحمد من أسمائه كما قال عيسى : (ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) .

وقد وضع ﷺ من ثويبه . قالت أم حبيبة للنبى ﷺ :(لقد بلغنى أنك تخطب «درة» ابنة أم سلمة بنت أبى سلمة. فقال ﷺ : لو كانت تحل لى. قد أرضعتنى وأباها) .

---

(١) رواه أحمد

« ثويبة » : مولاة بنى هاشم .. ودرة بنت أم سلمة زوج النبى . وأبوها أبو سلمة — فهى ربيبة النبى . ثم إن أباها أبا سلمة رضع مع النبى من ثويبة. فتكون « درة » ابنة أخى النبى — ففيها سببان للتحريم . ولذلك قال : إنها لا تحل لى . وهو جزء من حديث رواه الشيخان.

وكانت ثويبة أمة لأبى لهب، أعتقها حين بشرته بولادة ابن أخيه ﷺ . وهى أول مراضعه .

ومن أشهر مرضعاته — حليمة . فعن عتبة (أن رجلا سأل رسول الله ﷺ فقال : كيف كان أول شأنك يارسول الله؟ قال : كانت حاضنتى من بنى سعد بن كعب ، فانطلقت أنا وابن لها فى بهم لنا ولم نأخذ معنا زادا. فقلت يا أخى اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا . فانطلق أخى ومكث عند البهم وأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران .

فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ قال: نعم . فأقبلا يبتدران فأخذانى فبطحانى إلى القفا ، فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى، فشقاه، فأخرجا منه علقتين سوداوين . فقال أحدهما لصاحبه : ائتنى بماء ثلج ، فغسلا به جوفى ثم قال ائتنى بما برد فغسلا به قلبى

ثم قال : ائتنى بالسكينة فى قلبى . ثم قال احدهما لصاحبه : حصه . فحاصه ، وختم عليه بخاتم النبوة . فقال أحدهما لصاحبه : اجعله فى كفة واجعل ألفا من أمته فى كفة ، فإذا أنظر الألف فوقى أشفق أن يخر على بعضهم . فقال : لو أن أمته وزنت به لمال بها . ثم انطلقا وتركانى . وفرقت فرقا شديدا . ثم انطلقت إلى أمى فأخبرتها بالذى لقيته، فأشفقت على وقالت: أعيذك بالله . فرحلت بعيرا لها ، فجعلتنى على الرحل وركبت خلفى ، حتى بلغنا إلى أمى — فقالت : أو أديت أمانتى وذمتى . وحدثتها بالذى لقى ،

فلم يرعها ذلك فقالت : إنى رأيت خرج منى نور أضاءت منه قصور الشام(١)

وأرى أن شق الصدر فى تلك الرواية لو صح — فيجب تأويله على الشق المعنوى على حد قوله جل شأنه (ألم نشرح لك صدرك) .

والعلقة السوداء لا وجود لهما من الناحية الطبية . والقلب لو أخرج وفصل على الإنسان لمات صاحبه أو كان فى غيبوبة على فرض تزويده بأجهزة أخرى . وحديث الطفل فى عرف المحدثين غير مقبول لأنه ليس أهلا للتحمل ، إذ الشرط فيه التمييز والضبط ، وقد كان رضيعا .

وعن أبى كعب (أن أبا هريرة قال : يارسول الله ما أول ما رأيت؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال : لقد سألت أبا هريرة أن لنى صحراء ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأس ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ قال : نعم . ثم ذكر فيها أن الشق كان بلا جراحة ولا دم ولا وجع ، وأن الغل والحسد خرج كهيئة العلقة ، ثم نبذها فطرحها . وأن الرأفة والرحمة فى صورة مادية ، تشبه الفضة وضعت فى قلبه) :

وتلك الرواية مما تؤكد وجوب التأويل لحديث شق الصدر إن صح . وفى النفس من صحته أشياء ، ونحن لا نستبعد على قدرة الله شيئا ، وإنما سأل أولا عن سلامة الحديث فى متنه وسنده . ثم تفهمه تفهما لا يعارض القواعد العامة .

وقد قالوا : يجب تكذيب كل خبر مناقض لأحد المدركات الستة ،

(١) رواه أحمد

وهى الأمور البديهية : الأوليات والمشاهدات الباطنية . والمحسات الظاهرة . والتجريبيات والمتواترات . والحدسيات .

والحديث السابق يتعارض فى ظاهره مع ما قاله العلم . والذى أميل إليه أن الشق وقع قبيل المعراج ، إعدادا للجسم فى تحمل الحياة فى الفضاء الخارجى . ونحن نشاهد رواد الفضاء يصعدون بزى مخصوص لا يمكنهم العيش به فى الأرض ، كما لا يمكنهم الإستغناء عنه فى الفضاء ، ومن هنا ملنا إلى قبول رواية شق الصدر قبيل المعراج على ظاهرها .

ولقد كان ﷺ فى حياته قبل البعثة مستمسكا بالفضائل بفطرته . عن على بن أبى طالب سمعت رسول الله يقول : (ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين : كلتاهما عصمنى الله عز وجل فيهما . ثم ذكر الحديث وفيه : أنه كان يرعى الغنم ذات ليلة . وتركها فى رعاية صحبه ، ثم هم أن يسمر مع فتيان قريش فى حفل زواج ، فضرب الله على أذنيه فنام حتى الصباح ، ما أيقظه إلا مس الشمس) .

ثم قال النبى بعد أن قص الحادثة الثانية وهى كالأولى تماما : (والله ما هممت ولا عدت بعدهما لشىء من ذلك حتى أكرمنى الله عز وجل)(١) .

والحق أن أمثال تلك النصوص لا تقطع بتحريم الإستماع إلى الغناء . فالغناء كأى كلام : إن كان حقا فلا بأس به . وإن كان باطلا حرم سماعه ، سواء كان فى صورة الغناء أم لا .

(١) عن ابن كثير فى البداية والنهاية حـ ٢ ص ٢٨٧

وقد حضر الرسول حرب الفجار قبل بعثته مع عمومته ، ورمى فيها بأسهم ، وقال : (ما أحب أنى فعلت)(١) .

وكان يحب نصرة المظلوم ، شهد حلف الفضول وهو صورة مصغرة عن الهيئات العالمية القضائية فى عصرنا (لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ، لو دعيت به فى الإسلام لأجبت .

وفى رواية : ما أحب أن لى به حمر النعم : تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها ، وألا يعدو ظالم على مظلوم) .

وكان يسرع بحكمة إلى فض المنازعات ، فلخمس وثلاثين سنة من مولده . جاء سيل جارف فصدع جدران الكعبة ، فأرادت قريش تجديد بنائها ، فتنازعوا على وضع الحجر الأسود فى مكانه ، وساقت الأقدار محمداً ﷺ ، فوضع الحجر فى ردائه ، وشاركت القبائل العربية كلها فى محله حتى مكانه ، فحقق بهذه الفكرة التى ارتآها الوفاق والتآخر بين القبائل العربية جميعا ، وعصمهم من الوقوع فى حروب قد يطول أمدها ، وقرر مع ذلك مبدأ الإنصاف على قاعدة المساواة ، ولم يجعل فى حله هذا أى ثغرة تتسرب إليه ، الموجدة أو الضغينة أو سوء السمعة . ولهذا الحل أثر كبير فى مستقبل الإسلام .

فقد لفت أنظار العرب جميعا أن محمداً رجل يمكن الاعتماد عليه فى أعظم مظهر من مظاهر حياتهم الاجتماعية ، وهو النزاع الدائم لسبب ولغير سبب فقد أصبح حكما موفقا ، والتحكيم من أشرف الصفات وأليقها بالرئاسة ، وبذا أصبح محمد ﷺ زعيما منتظرا لتأليف القلوب ، وتوحيد الكلمة ، وتنفيذ الحق ، وإقراره الأمين . . وهذه مسألة لها مزيد اختصاص بالرسالة مع

(١) رواه ابن سعد فى الطبقات .

عظيم خطرها بين قبائل عسكرية متنافرة ، تثور ، وما أكثر ما تثور لأقل بادرة .

وفى وسط هذا المجتمع لقب بالأمين . صلوات الله عليه وسلامه .

ولقد سجل وحى السماء كل حركاته المتعلقة بأداء رسالة الإسلام وذلك منذ بعثته ، ويحاول أعداء الإسلام أن يشككوا فى سيرته — فيثيروا أن حياته منذ أن كانت سنة خمس وعشرين — حيث تزوج بخديجة — حياة مجهولة ، يمكن أن يكون قد تعلم فيها .

ونحن نقول لهم — من أين كان يتعلم والقرآن لم يزل معجزا فى عصور العلم والتقدم ؟ . . وتلك الفترة من حياته لم يكن فيها شىء يذكر .

وزواجه بخديجة يوحى بمهنته فى تلك المدة ، وهى رعيه الغنم ، والإشتغال بالتجارة . . ونحن مطالبون أن نعرف حياته منذ بعثته . . أما حياته قبل البعثة — فلم يتعلق بها شىء يمس جوهر الإسلام .

بدء الوحى :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : (أول مابدىء به ﷺ الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل خلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ، وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ،

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلا والله مايخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى .

فقالت خديجة : يا ابن عم إسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، يا ليتنى فيها جزعا ، ليتنى حيا إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزرا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى)(١) .

هذا الحديث الجميل يلفت نظرنا إلى نقاط عديدة — نجملها فيما يأتى :

١ — رؤيا الأنبياء حق ، فقلوبهم لاتغفل على ذكر الله ، وفى الحديث (إن عينى تنامان ولا ينام قلبى) .

ومن هنا كانت رؤيا إبراهيم فى المنام ذبح ولده وحيا لاشبهة فيه عند اسماعيل : (يا أبت أفعل ماتؤمر) بيد أن رؤيا الأنبياء وإن كانت وحيا فهى من الوحى الخفى ، وليس فى القرآن الكريم شىء من الوحى الخفى ،

(١) البخارى .

بل كله وحى جلى ، لاشبهة فيه ، حمله ملك من اللوح المحفوظ ، منطقة الأمان من استراق السمع إلى قلب النبى منطقة الأمان (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين) وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون ، إنهم عن السمع لمعزولون) (وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) .

٢ — الوحى من الله — إعلام الله من يوحى إليه بما يريده .

ولقد كان الوحى يجىء إلى النبى فى صور مختلفة : أحيانا مثل صلصلة الجرس . وأحيانا يتمثل له الملك رجلا ، والمؤكد أن يقع فى نفس النبى علم ضرورى بما أوحى الله به إليه وأن هذا كلام الله ومراده منه .

ومن الناس من ينكر إمكان الوحى ووقوعه ، وتلك جهالة وحماقة ، والإنسان عجيب فى شأنه ، يصعد بقوة عقله إلى أعلى مراتب الملكوت ، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت ، ثم يصغر ويتضاءل وينحط إلى أدنى درك من الإستكانة والخضوع متى تحرصه له أمر لايعرف سببه — ولم يدرك منشأه . من ذلك الضعف قادته الرسل إلى هداه ، ومن تلك الضعة أخذت بيده إلى شرف سعادته .

والوحى ممكن إذ لو خلى العقل السليم — لايرى فيه استحالة ، وقد وقع ، ولو لم يكن ممكنا ما وقع ، وقد أثبت العلم الحديث حالتين قد يمتاز بهما بعض الأفراد عن الآخرين — وهما — قراءة الأفكار ، والجلاء البصرى . والدليل على صحة مايحدث به الرسل شفاء مرضى القلوب بدوائهم ، وقوة العزائم والعقول بتعاليمهم ، ومن المنكر فى البدية أن يصدر الصحيح من معتل ، ويستقيم النظام بمختل .

٣ — النبوة فى الإسلام تعتمد على هداية العقل والقلب ، والخوارق أمر ثانوى ، فالإسلام خاتم الأديان ، وهو دين المعجزات التى تحجبه عن

الرؤية وتضطره بالإفحام القاهر إلى التسليم (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) .

وكان الإسلام خاتما لأنه دين لا يلغى العقل ، بل يصحب العقل معه لينفعه تعاليم الدين ، والأديان كانت مصاحبة للإنسان فى تطور نموه ، فلما اكتمل الإنسان أكمل الله الدين ، وليس بعد تمام الرشد وصاية ولا بعد كمال العقل ولاية (قد تبين الرشد من الغى) .

٤ — وحى المؤمن رؤياه وبمقدار صدقه مع الله يتفق الواقع مع ما يرى ، لكن بلا استكبار ولا غرور ولا إعلان على الناس ابتغاء الإستيلاء على الدهماء كما يفعله الدجالون الأدعياء ، فكلما انفتح للعبد باب عند سيده زهد فى السمعة والشهرة ، وفر إلى ربه بعيداً عن أعين الناس . وهذا صنيعه ﷺ . فالخلوة مطلوبة إذا لم يستطع المختلى أن يقاوم المنكرات .

ومن المعلوم فى تعاليم الإسلام أن الرجل الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل ممن يعتزلهم . وخلوته ﷺ كانت أول الطريق ، وليست فراراً من الصبر على أذى الناس ، وإنما كانت أولى المنازل يتأمل ، والتأمل عبادة (أو لم يتفكروا) (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض) .

ولا نميل إلى أنه كان يتعبد على دين سابق لابراهيم أو موسى أو عيسى ، بل كان يتأمل بالفطرة (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) .

٥ — أمره ﷺ بالقراءة وهو ليس بقارىء — يحتمل أن يكون المعنى : كن بأمر الله قارئا ، ويحتمل أن يكون الأمر بالقراءة — أى استمر على قراءتك الصامتة فى صفحة الكون ، وسوف يهديك الله إلى ما تسأل

عنه ، ويتردد التساؤل عنه فى ذهنه من المبدع المنشىء ؟ فأجبت بأنه ربك الذى خلق .

وطلب القراءة ممن لا يقرأ أمر عجيب عند المطلوب منه ، ولذلك قال (ما أنا بقارى.) وكررها جبريل عليه ، ليوضح أنه ليس مراده القراءة من كتاب ، وإنما مراده كن قارئا أو استمر فى القراءة الصامتة فسنهديك إلى ما تسأل عنه .

ومن الجميل أن تكون أول آية فى الإسلام إعلان حرب على الجهل — وهو أحد الثالوث المدمر للعالم ، والمقام مقام تربية ، وتبدأ التربية فى الاسلام بالحديث عن مبدأ الإنسان ، وكأن تعاليم الإسلام ونمو الإنسان — يسيران جنبا لجنب من البداية إلى النهاية .

ومن آخر ما نزل (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) .

٦ — ها هو ماضى النبى ﷺ تتحدث عنه خديجة ، فتطمئنه على مستقبله ، وهذا هو الرجاء المحمود فى الله سبحانه ، وذهابها إلى ورقة تأكيد لما ترجوه ، ولقد كان ورقة ممن تعلموا من الكتب السماوية ، والتوراة هى الأصل حتى عند المسيحيين ، وأعلن الرجل الحقيقة أنه لم يأت رجل بالحق إلا عودى وحورب من أجله — وهذا هو الذى كان .

﴿ الدعوة إلى الاسلام ﴾

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (أنزل على النبى ﷺ وهو ابن أربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة ، ثم أمر بالهجرة ، فهاجر إلى المدينة فمكث بها عشر سنين ، ثم توفى ﷺ)(١) .

لقد نزل القرآن على النبى ﷺ يأمره أن ينذر الناس وأن يدعوهم إلى الله ، ولقد كانت الآيات الأولى توجيها خاصا لشخص النبى ﷺ ، ثم كان الأمر بالإنذار (يا أيها المدثر قم فأنذر) .

ولا أميل إلى جعل فترة كانت الدعوة فيها سريه ، وأخرى كانت علانية ، وإنما أجعل الفترة الأولى كانت دعوة للأفراد ، والأخرى دعوة للجماعات ، لأن الآيات الأولى من القرآن تشير إلى أن الدعوة سمعت بها قريش منذ نزولها ، وسورة القلم توحى بهذا (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وذلك رد على مفترياتهم (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون)(٢) .

وكل سور القرآن الذى نزل بمكة تبين العقائد والأعمال التى كلف الله بها عباده ، وأوصى رسوله أن يتعهد قيامها ونماءها . وتتلخص فى :الإعتقاد ، والإقرار ، والعمل بوحدانية الله ووصفه بكل كمال ، والجزاء فى الدار الآخرة ، وتزكية النفس — وذلك بلزوم عبادات معينة شرعها الله عز وجل ، وترك أمور أخرى حذر من مغبتها .

---

(١) البخارى .

(٢) سورة القلم .

وأكد القرآن حفظ كيان الجماعة المسلمة باعتبارها وحدة متماسكة ، تقوم على الأخوة والتعاون ، وذلك يقتضى نصرة المظلوم وإعطاء المحروم وتقوية الضعيف (كل نفس بما كسبت رهينة ، إلا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين ، ما سلككم فى سقر ؟ قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شفاعة الشافعين) .

إسلام بعض الشخصيات الكبيرة :

قال تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) أخذت الدعاية للاسلام تنتشر فى مكة وتعمل عملها فى أصحاب الأفئدة الكبيرة ، فسرعان ما يتركون جاهليتهم الأولى ويسرعون إلى إعتناق الدين الجديد ، وكانت آيات القرآن تنزل على القلوب التى استودعت بذور الإيمان كما ينزل الوابل التربة الخصبة (فإذا أنزلنا عليها المهاهترات وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) .

والإيمان قوة ساحرة ، إذا استمكنت من شعاب القلب وتغلغلت فى أعماقه ، تكاد تجعل المستحيل ممكنا .

ومن الطبيعى أن يعرض الرسول ﷺ — أولا — الاسلام على ألصق الناس به من آل بيته وأصدقائه .

وهؤلاء لم تخالجهم ريبة قط فى عظمة محمد عليه الصلاة والسلام وجلال نفسه وصدق خبره ، فلا جرم أنهم السابقون إلى مؤازرته وأتباعه .

آمنت به زوجته خديجة ، ومولاه زيد ، وابن عمه على بن أبى طالب — وصديقه الحميم أبو بكر ، ثم نشط أبو بكر فى الدعوة إلى الاسلام

فأدخل فيه أهل ثقته ومودته عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله، وسعد ابن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وأبو ذر الغفارى، وعمرو بن عنبسة، وسعيد بن العاص .

وإن نحن أمعنا النظر فى الأربعة الأول ، انكشف لنا حسن معاملة النبى لمن يخالطهم . فالزوجة والمولى والضيف والصديق — هم أعلم الناس بالانسان ، وهم كمرآة تتبلور فيها الصورة الحقيقية التى تكشف عن داخل نفسية الانسان وعن مشربه ومخبره .

وتطايرت الأنباء إلى قريش عن الاسلام ، ولم ترعها اهتمامها ، وربما تصورت أنه محمدا واحد من أولئك الذين صاحوا ببعض الأفكار ، ثم انكمشوا كالحنفاء فى بلاد العرب . لكن الأمر ليس كذلك . وإنما هو رسالة ورسول ودعوة إلى الله الحى القيوم .

الجهر بالدعوة ومعارضة قريش :

قال تعالى : (وانذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل انى برىء مما تعملون) .

دعا أقاربه كما أوجب عليه ربه ، دعاهم وهو ملتزم بما ترسمه الآيات من سياسة التواضع والأمل حتى فى حالة عصيانهم يتبرأ من عملهم الى أن يصلحوه . فهزؤا به مما تصوره (تبت يدا أبى لهب وتب) .. السورة .

ويتوالى أمر الله له (أصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون) .

ومع أن هذه الايات ترسم له سياسة أوسع مدى من إعراضه عن

المستهزئين والمشركين ، وإلزامه بالصبر — مع أن الأمر كذلك — فإن قريشا أبت إلا أن تقف له بالمرصاد ، ترده وتكيد له .

روى البخارى عن ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، وقد سئل عن أشد ماصنعه المشركون بالنبى ﷺ قال : (بينما النبى يصلى فى حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبى معيط، فوضع ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا ،فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى ﷺ وقال أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله .. الآية) .

وهكذا ابدأت قريش تسير فى طريقها ، طريق اللدد، ومجانبة الصواب . ومضى محمد ﷺ كذلك فى طريقه يدعو إلى الله ، ويتلطف فى عرض الإسلام ، ويكشف النقاب عن مخازى الوثنية ، ويسمع ويجيب ، ويهادن ويدافع ، ويصبر ويصابر فى عرض الاسلام على قريش وعلى أقاربه بصفة خاصة — فإن منزلتهم الكبيرة فى العرب تجعل كسبهم عظيم النتائج .

وهم — قبل ذلك — أهله الذين يود لهم الخير ، ويكره لهم الوقوع فى مساخط الله . . ولكن من يهدى الله فلا مضل له ، ومن مضلل فلا هادى له .

اشتد الأذى بالنبى وبالمسلمين ، وتحمس له أبو طالب ، وهو لم يدخل معهم فى الايمان .. وأبو طالب — برغم بقائه على الشرك واستمساكه بدين الآباء — ظل حى العاطفة ظاهر الحدب على ابن أخيه ، وهو يدرك كل الادراك ما سوف تجره هذه الدعوة من متاعب عليه وعلى أسرته ، بيد أن إعزازه محمد وتأذيه من مواجهته بما يكره حملاه على ضمان الحرية له، بل على التعهد بحمايته وهو يبلغ عن ربه .

ولهذا المجهود قيمته فى تخفيف العذاب عنه عند الله ، عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه (أنه قال للنبى ﷺ ما أغنيت عن عمك فإنه

وقد قيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى هناك ، ثم انتشرت الإشاعات بأن أذى قريش خفت حدته .. فعاد بعضهم إلى مكة — فرأى الأمر لم يزل على ما كان من سوء الإضطهاد ، ثم واصلت قريش أذاها بالمسلمين فأشار النبي بالهجرة مرة ثانية إلى الحبشة ، وكانت هذه الهجرة أشق من سابقتها ، فقد تيقظت قريش لها وقررت احباطها ، بيد أن المسلمين كانوا أسرع .

وقد عز على قريش أن يجد المهاجرون مأمنا لأنفسهم ودينهم، وأغرتهم كراهيتهم للإسلام أن يبعثوا إلى النجاشي وفدآ منهم محملا بالهدايا والتحف وقدموها للحاشية وأوغلوا صدر الملك رجاء أن يطردهم ، لكنه كان أعقل مما تصوروا ، وأنزه بعدله على ما قدموا ، استدعى المسلمين ليسمع منهم ، فتكلم عنهم جعفر قائلا : أيها الملك ، كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . حتى بعث إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه . . فدعانا لتوحيد الله وأن لا نشرك به شيئا ، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وأمرنا بالصلاة والصيام ، وعدد عليه أمور الإسلام .

قال جعفر : فآمنا به ، وصدقناه ، وحرمنا ما حرم علينا ، وحللنا ما أحل لنا ، فتعدى علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان . فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورجونا أن لا نظلم عندك .

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله شيء ؟

قال : نعم . فقرأ عليه سطراً من أوائل سورة « مريم » فبكى النجاشي وأساقفته . وقال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة انطلقا ، والله لا أسلمهم إليكما أبدا — يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه .

وهكذا انتهت الجولة الأولى ، صور فيها جعفر دينه بحق ، وحسم النجاشي الموقف بحزم وصدق ، لكن عمرو بن العاص قال لصاحبه : والله لآتينه غدا بما يبيد خضراءهم .

فلما كان الغد قال للنجاشي : إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح . فقال جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ، هو عبد الله ورسوله وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فأخذ النجاشي عودا من الأرض وقال : ما عدا عيسى ما قلت قدر هذا العود ، فنخرت بطارقته ، فقال : وإن نخرتم .

وقال للمسلمين : أذهبوا فأنتم آمنون ، ما أحب أن لي جبلا من ذهب وأنني آذيت رجلا منكم ، ورد هدية قريش وقال : ما أخذ الله الرشوة مني حتى آخذها منكم ، ولا أطاع الناس في حتى أطيعهم فيه ، وأقام المسلمون عنده بخير دار .

والذي يجدر التنبيه له من هذا العرض — توفيق المسلمين في إنابتهم لجعفر يتحدث عنهم ، إذا هو القادر على مجادلة السياسي الكبير عمرو ابن العاص .

وقد قيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى هناك ، ثم انتشرت الإشاعات بأن أذى قريش خفت حدته .. فعاد بعضهم إلى مكة — فرأى الأمر لم يزل على ما كان من سوء الإضطهاد ، ثم واصلت قريش أذاها بالمسلمين فأشار النبى بالهجرة مرة ثانية إلى الحبشة ، وكانت هذه الهجرة أشق من سابقتها ، فقد تيقظت قريش لها وقررت احباطها ، بيد أن المسلمين كانوا أسرع .

وقد عز على قريش أن يجد المهاجرون مأمنا لأنفسهم ودينهم . وأغرتهم كراهيتهم للإسلام أن يبعثوا إلى النجاشى وفداً منهم محملا بالهدايا والتحف وقدموها للحاشية وأوغلوا صدر الملك رجاء أن يطردهم ، لكنه كان أعقل مما تصوروا ، وأنزه بعدله على ماقدموا ، استدعى المسلمين ليسمع منهم ، فتكلم عنهم جعفر قائلا : أيها الملك ، كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . حتى بعث إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه . . فدعانا لتوحيد الله وأن لانشرك به شيئا ، ونخلع ماكنا نعبد من الأصنام ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحـارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وأمرنا بالصلاة والصيام ، وعدد عليه أمور الإسلام .

قال جعفر : فآمنا به ، وصدقناه ، وحرمنا ماحرم علينا ، وحللنـا ماأحل لنا ، فتعدى علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان . فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورجونا أن لانظلم عندك .

فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله شىء ؟

قال : نعم . فقرأ عليه سطراً من أوائل سورة « مريم » فبكى النجاشى وأساقفته . وقال النجاشى : إن هذا والذى جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة انطلقا ، والله لا أسلمهم إليكما أبدا — يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه .

وهكذا انتهت الجولة الأولى ، صور فيها جعفر دينه بحق ، وحسم النجاشى الموقف بحزم وصدق ، لكن عمرو بن العاص قال لصاحبه : والله لآتينه غدا بما يبيد خضراءهم .

فلما كان الغد قال للنجاشى : إن هؤلاء يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل النجاشى يسألهم عن قولهم فى المسيح . فقال جعفر : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ، هو عبد الله ورسوله وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فأخذ النجاشى عودا من الأرض وقال : ماعدا عيسى ما قلت قدر هذا العود ، فنخرت بطارقته ، فقال : وإن نخرتم .

وقال للمسلمين : أذهبوا فأنتم آمنون ، ما أحب أن لى جبلا من ذهب وأننى آذيت رجلا منكم ، ورد هدية قريش وقال : ما أخذ الله الرشوة منى حتى آخذها منكم ، ولا أطاع الناس فى حتى أطيعهم فيـه ، وأقام المسلمون عنده بخير دار .

والذى يجدر التنبيه له من هذا العرض — توفيق المسلمين فى إنابتهم لجعفر يتحدث عنهم ، إذا هو القادر على مجادلة السياسى الكبير عمرو ابن العاص .

ولقد كان جعفر موفقا فى اختياره سورة مريم ، وفيها ذكر المسيح، وكان عمرو داهية فى إرادته توريط المسلمين ، لكن الحق فى نفس النجاشى الكبيرة كان له تأثيره القوى ، فلم يقبل من المشركين مساومة ولا مناورة .

ذهاب النبى إلى الطائف ورد أهلها عليه :

كانت قبيلة ثقيف تسكن الطائف — التى تبعد عن مكة نحو خمسين ميلا قطعها النبى على قدميه يدعو الناس إلى ربهم .

وانتهى إلى ثلاثة رجال ، هم الذين يلون أمر الطائف ، ثم كلمهم عن الإسلام ، ودعاهم إلى الله ، فردوه جميعا رداً منكراً ، وأغلظوا له الجواب .

فأمرهم ﷺ بأن يكتموا عليه ذلك كراهية أن يبلغ أهل مكة .. لكن القوم كانوا أخس مما ينتظر ، فأخرجوه من الطائف وحرشوا عليه الصبيان والرعاع ووقفوا له صفين يرمونه بالحجارة ، وزيد بن حارثة يحاول عبثاً الدفاع عنه حتى شج فى ذلك رأسه .

وأصيب الرسول عليه الصلاة والسلام فى أقدامه ، فسالت منها الدماء واضطره المطاردون أن يلجأ إلى بستان لعتبة ، وشيبة ، ابنى ربيعة .

واستوحش الرسول عليه الصلاة والسلام لهذا الحاضر المرير ، وثابت إلى نفسه ذكريات الأيام التى عاناها مع أهل مكة ، فأخذ يناجى ربه ويقول :

اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . أنت أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ... إلى من تكلنى؟

إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى ... أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل على غضبك ، أو أن ينزل بى سخطك .. لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

وتحركت عاطفة القرابة فى قلوب ابنى ربيعة ، فدعوا غلاما لهما نصرانياً ، يدعى « عداساً » ، وقالا له : خذ قطفاً من هذا العنب ، واذهب به إلى هذا الرجل ... فتناوله الرسول ذاكراً إسم الله عند أكله .

فسأله الغلام عن الله ، وأنه لم يسمع هذا إلا منه .

فسأله النبى عن بلده . فقال الغلام : من « نينوى » . قال النبى : قرية الرجل الصالح يونس بن متى ، كان نبياً وأنا نبى . فأكب الغلام يقبل يدى النبى ورجليه .

والحق أن أهل الطائف كانوا غلاظاً شداداً . تخلوا عن المروءة العربية فى نصرة المظلوم ، وإيواء اللاجىء . وزاد من سفاهم أن أغروا به الصبية . لكن كل هذا فى سبيل الله يهون .

وقد فتح الله عليه الطائف بعد ، وأتم عليه النعمة . وحقق الله رجاءه وقوله لزيد بن حارثة — صاحبه فى الطائف (إن الله جاعل لما ترى فرجا) .

﴿ الإسراء والمعراج ﴾

قال تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا) .

وقال سبحانه مشيراً إلى المعراج : (والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى) .

يقصد بالإسراء الرحلة العجيبة التى بدأت من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس .

ويقصد بالمعراج ما أعقب هذه الرحلة من ارتفاع فى طباق السموات حتى الوصول إلى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق ولا يعرف كنهه أحد . ثم الأوبة — بعد ذلك — إلى المسجد الحرام بمكة .

ومن ملاحظة القرآن لمقتضى الحال وخطاب الناس على قدر عقولهم أن تحدث عن الإسراء ، تصريحاً لأنه رحلة أرضية . وتحدث عن المعراج تلميحاً لأنه رحلة سماوية ، وعقول البشر وعلومهم إذ ذاك — لا تتقبل إمكان الرحلة فى السماء بسهولة .

وقد صدر القرآن الحديث عن الإسراء بكلمة التنزيه لله ، ليبين أن الفاعل هو القادر الذى لا حدود لقدرته ، وليس هو النبى . فقد أوضح لهم مدى

قدرته حين قالوا له (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا) .

والإسراء وإن كان خارقاً للعادة — فليس بمعجزة . إذ المعجزة فى الإصطلاح أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدى . وليس فى الإسراء تحدياً .

ولقد كان بالروح والجسد معاً ، يرشح ذلك قوله بعبده . ولو كان بالروح فقط ما أنكرته قريش . فكل إنسان يجوب فى منامه آفاقاً بعيدة من غير نكير عليه .

وقد بدأت الرحلة فى الإسراء من مكان مجاور للحرم ، وليس من نفس الحرم . والحرم وما جاوره مسجد .. ثم انتهت إلى المسجد الأقصى . وهنا إشارة دقيقة يبشر الله فيها المسلمين بالنصر والإستيلاء على هذا المكان — حيث كان معروفا بالهيكل أو البيت . أما المسجد فمصطلح إسلامى على مكان العبادة للمسلمين .

وكأن الآية تفتح أعين المسلمين — فتتطلع إلى الشام ، لتعود الأمور إلى نصابها .

ولقد تنبه عمر بن الخطاب إلى ذلك — فعندما فتحت الشام وأبى راعى القدس أن يسلم المفاتيح إلا لخليفة المسلمين ، جاءه عمر على دابته العرجاء بمظهره المتواضع يقول : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلا نبتغى العزة فى سواه ، وتسلم المفاتيح ، وصلى الصبح مبتدئا قراءته بسورة « سبحان » .

يترجم عما فى نفسه : وعدتنا يا ربنا بالنصر وما كنا نظن أن تعجله لنا بتلك السرعة .

والمسجد الأقصى لم يبنه المسلمون على هيكل سليمان كما تروى كتب التاريخ وبعض كتب التفسير التى قبلت الدخيل من دسائس اليهود على تراثنا الإسلامى وقت غفـلة المسلمين . فمن غير المعقول أن يقام المسجد فوق الهيكل والأرض أمامهم واسعة ، وقد أبى عمر أن يصلى فى كنيسة القيامة لئلا يحولها المسلمون من بعده قائلين : هنا صلى عمر .

ولقد قام اليهود بالبحث والتنقيب عن الهيكل فلم يجدوا شيئا . وتقبل المسلمين لتلك الفكرة ترويج لأقاويل اليهود أنهم ظلموا ، وأنه قد طمست معالم عبادتهم بإقامة المسجد عليها ، فنحن المسلمين لانفرق بين الله ورسله ، ولانفرق بين أحد من رسله .

وقد بين الله الحكمة من الإسراء بقوله جل شأنه (لنريه من آياتنا) . ولانحسب أنها آيات كونية محسوسة كالقمر والكواكب إذ يمكن أن يراها وهو فى بيته .

والذى نميل إليه أن الرؤية كانت لآيات معنوية ، جسدها الله له وصارت محسة تراها البصيرة — مثل الرحمة فى صورة مادية ، والكرم ، والعفو ..

والإنسان فى هذه الحياة — محجوب عن رؤية الحقائق .

فإذا ما تخلص منها رأى الأمور على حقائقها (لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) .

ومحمد ﷺ وهو فى هذه الحياة — ارتقى ساعة الإسراء والمعراج ، فرأى الأمور على حقائقها ..

ولقد ركب البراق — وهو كائن يضع خطوة عند أقصى طرفه ، كأنه يمشى بسرعة الضوء .. وكلمة « براق » تشير اشتقاقها إلى البرق ، أى أن قوة الكهرباء سخرت فى هذه الرحلة .

لكن الجسم — فى حالته المعتادة — يتعذر عليه التنقل فى الآفاق بسرعة البرق الخاطف ، فلابد من إعداد خاص ، يحصن أجهزته ومسامه لهذا السفر البعيد .

وشق الصدر كما سبق — رمز لهذا الإعداد . وقصة الإسراء والمعراج مشحونة بهذه الرموز ، ذات الدلالة التى تدق على البسطاء .

وقد وقعت للرسول بشخصه . فى طور بلغ الروح فيه قمة الإشراق ، وخفت فيه كثافة الجسد ، حتى تفصى من أغلب القوانين التى تحكمه .

وكانت الرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فى الإسراء ، لتعيد إلى الذهن ذكريات . فقد ظلت النبوات دهوراً طوالا وهى وقف على بنى إسرائيل ، وظل بيت المقدس مهبط الوحى ومشرق أنواره على الأرض ، وقصبة الوطن المحبب إلى شعب الله المختار .

فلما أهدر اليهود كرامة الوحى وأسقطوا أحكام السماء ، حلت بهم لعنة الله ، وتقـرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد .. ومن ثم كان مجىء الرسالة إلى محمد ﷺ انتقالا بالقيادة الروحية فى العالم ، من أمة إلى أمة ، ومن بلد إلى بلد ومن ذرية إسرائيل إلى ذرية إسماعيل .

فكان من وصل الحاضر بالماضى ، وإدماج الكل فى حقيقة واحدة ، أن يعتبر المسجد الأقصى ثالث الحرمين فى الإسلام ، وأن ينتقل إليه الرسول فى إسرائه ، فيكون هذا الإنتقال احتراما للإيمان الذى درج — قديما — فى رحابه ، ثم كان منه المعراج .

وما أشد التناسب بين النبي والنجم المقسم به ، إذ لكل منهما يهتدى السالك ، وما أعظم الملاءمة بين رحلة فى السماء وقسم بالنجم .

وتلك الرحلة لاشطط فيما يقوله النبي عنها، ولا عن غيرها، فهو معصوم عصم الله عقله (ما ضل صاحبكم) ، وعصم قلبه (وما غوى) ، وعصم لسانه (وما ينطق عن الهوى) .

ولا يعنى المعراج أن لله مكانا ، فآثار الله فى كل مكان ، وإنما اختار منزلة رفيعة يكرم فيها عبدا من عباده الذين أضناهم جهاد الدعوة من أجل الله .

وفريضة الصلاة فى تلك الليلة — بخمسين ، ثم تخفيفها إلى خمس — تعنى رمزاً إلى فضل الله ، وهو أن تخفيض ساعات العمل لا يمس الأجر عنده (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) .

وصلاة النبي بالأنبياء — تعنى هيمنة الإسلام على كل الأديان ، وأن الأنبياء بأممهم أسلموا قيادهم لنبى الإسلام .

وقد أتى بإناء لبن وإناء خمر — فتناول اللبن . فقيل له : هديت إلى الفطرة التى أنت عليها وأمتك (فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم) .

ولقد استقبلت قريش هذا الحدث الجليل بالتكذيب .

فأخذت تسأل عن نوافذ بيت المقدس، وكم فيه من الأخشاب . أسئلة لم ينتبه للإجابة عنها إلا ذهن فارغ ، ونفس خاوية ، أما النفس الكبيرة المدعوة لضيافة ربها — فكيف تجيب عن أسئلة تافهة ؟ . لكن فضل الله يأتيه من يشاء .

روى البخارى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، أنه سمع رسول

الله ﷺ يقول : (لما كذبتنى قريش قمت فى الحجر فجلا الله لى بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه) .

وعن مالك بن صعصعة رضى الله عنهما أن نبى الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به قال : (بينما أنا فى الحطيم ، وربما قال فى الحجر مضطجعا ، إذ أتانى آت فقد قال وسمعته يقول . فشق ما بين هذه إلى هذه . قال الراوى : من ثغرة نحره إلى شعرته ، فاستخرج قلبى . ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا . فغسل قلبى ثم حش ثم أعيد ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض ، قال الراوى : وهو البراق يضع خطوة عند أقصى طرفه ، فحملت عليه ، فانطلق بى جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل من هذا ؟ قال : جبريل . قيل ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل مرحبا به فنعم المجىء جاء . ففتح ، فلما خلصت فإذا فيها آدم ، فقال هذا أبوك آدم فسلم عليه . فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال مرحبا بالإبن الصالح ، والنبى الصالح . ثم صعد بى حتى أتى السماء الثانية فاستفتح ، قيل من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل . وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل: مرحبا به فنعم المجىء جاء . ففتح فلما خلصت إذ يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة ، قال : هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما ، فسلمت فردا ، ثم قالا مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح . ثم صعد بى إلى السماء الثالثة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال: محمد . قيل . وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبا به فنعم المجىء جاء . ففتح ، فلما خلصت إذا يوسف ، قال : هذا يوسف فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح . . ثم صعد بى حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح ، قيل من هذا ؟ قال : جبريل، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبا به فنعم المجىء جاء . ففتح ، فلما خلصت فإذا إدريس . قال : هذا

إدريس فسلم عليه . فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟

قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ﷺ . وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم قيل : مرحبا به فنعم المجيء جاء . فلما خلصت فإذا هارون ، قال هذا هارون فسلم عليه . فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال جبريل . قيل : من معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال نعم . قال مرحبا به فنعم المجيء جاء . فلما خلصت فإذا موسى ، وقال هذا موسى فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح . فلما تجاوزت بكى . قيل له ما يبكيك ؟ قال أبكى لأن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي . ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟

قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد بعث إليه ؟ قال نعم ، قال : مرحبا به فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت ، فإذا إبراهيم ، قال : هذا أبوك ابراهيم فسلم عليه . فسلمت عليه فرد السلام ، فقال: مرحبا بالإبن الصالح والنبي الصالح .

ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة : قال : هذه سدرة المنتهى. وإذا أربعة أنهار — نهران ظاهران، ونهران باطنان، فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات. ثم رفع إلى البيت المعمور. فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم أتيت بإناء من خمر ، وإناء من لبن ، وإناء من عسل ، فأخذت اللبن . فقال : هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك . ثم فرضت على الصلوات خمسين صلاة كل يوم . فرجعت فمررت على موسى ، فقال بما أمرت ؟ قلت : أمرت بخمسين صلاة كل يوم .

قال : إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وإني والله قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . فرجعت فوضع عني عشراً . فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشراً. فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً . فرجعت إلى موسى فقال مثله . فرجعت فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عن عشرا فأمرت بعشر صلوات كل يوم ، فرجعت . فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم ، فرجعت إلى موسى ، فقال بما أمرت ؟ قلت : أمرت بخمس صلوات كل يوم ، قال : إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، وإني قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قلت : سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم .

قال : فلما جاوزت ناداني مناد ، أمضيت فريضتي ، وخففت عن عبادي) .

وقد تقدم أن قصة الإسراء رموز، كما أن هذا الحديث الطويل يتعذر حمله على ظاهره . بل ربما يستحيل حمله على ظاهره .

وقد علمنا أن المنقول إن كان ظنيا وعورض بالرأي القاطع ، فإنه يؤول المنقول بما يتفق مع الرأي القاطع .. وعليه فإن هذا الحديث يرمز لاختلاف مقام الأنبياء ، وعظمة ملك الله .وأن العمل طريق إلى الجنة ..

فالنيل والفرات : يعني الماء العذب في الجنة ، ويعني أن أهل هذين النهرين سيدخلون الإسلام وينالون الجنة بفضل الله .

وتردده بين موسى — رمز إلى لطف الله بعباده ، وكان موسى بالذات لأنه حمل التوراة ، وهي المرجع لأهل الكتاب .

وقد أضطررنا إلى تأويل مثل هذه النصوص، عملا بأن فى القرآن والسنة محكما ومتشابها، وحمل المتشابه على المحكم واجب، ويقتضى صرف المتشابه عن ظاهره.

ومن الناس من يعجز عن التأويل — فيتشكك فى صحة الحديث، ولسنا من هؤلاء، فالحديث كما سبق رواه البخارى ومسلم، ممن انعقد الإجماع على صحة مافى كتابيهما.

عرض نفسه على القبائل :

قال تعالى: (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هى أحسن).

لقد دعا أهل مكة فكان التعصب والعناد، ودعا أهل الطائف فكان التحلل من المروءات والسفه والحمق، واتجه بدعوته عليه السلام إلى وفود خارجة عن منطقة مكة والطائف إلى وفود يثرب «المدينة»، الذين يجاورون اليهود ويسمعون منهم مايتحدثون به عن نبى يقاتل الوثنية وينضم اليهود لها.

والغريب أن اليهود كانوا أول من كفر بهذا النبى يوم ظهر فيهم واقترب منهم! (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم — وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا — فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين).

وهذه الآية تشير إلى تعصب اليهود لبنى جنسهم، وأنهم لاينقادون إلا لرجل منهم، فكان إيمانهم مشوبا بالكفر (بئس ما اشتروا به أنفسهم

أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباءوا بغضب على غضب، وللكافرين عذاب مهين).

أما الإيمان الصحيح فهو انقياد للحق أيا كان هذا الحق مع عدو أو صديق.

ولقد جاء محمد ﷺ بالحق، وكان اليهود أعلم الناس بما مع محمد — فهو لا يختلف عما معهم فضلا عن هيمنته عليه.

ومع ذلك فقد كفروا (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا، ويكفرون بما وراءه وهو الحق، مصدقا لما معهم، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين).

أما العرب الأميون الذين هددتهم اليهود بمبعثه، فقد فتحوا مسامعهم له.

فعندما وافى موسم الحج وقدمت قبائل يثرب، ورأوا الرسول ﷺ يدعو الناس إلى الله، قال بعضهم للبعض: تعلمون والله ياقوم، إن هذا الذى توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه...

إن عناصر النفور والمقاومة، التى عهدها فى مكة — تحولت هنا إلى عناصر احترام واقبال...

فقبل الهجرة ببضع سنين وقعت بين الأوس والخزرج معركة «بعاث» — كان النصر قبلها للخزرج ثم عاد للأوس.

وبلغ من حدة الخصام بين الفريقين، أن كليهما فكر فى استئصال الآخر وإبادته، لولا أن تدخل أولو النهى بالنصح أن يبقوا على

أنفسهم وإخوانهم ، فجوارهم أفضل من جوار الثعالب — يعنى اليهود .

قال ابن إسحاق : فلما أراد الله إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ، وإنجاز موعده له ، خرج رسول الله فى الموسم ، الذى لقيه فيه النفر من الأنصار .

فعرض نفسه على القبائل كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً .

فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما لقيهم رسول الله ﷺ .

قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن ..

قال : فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ، والقوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، عسى أن يجمعهم الله بك ، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم ، قد آمنوا وصدقوا .

ونحن لا نرتاب فى أن الحروب الدامية بين الأوس والخزرج كان من ورائها اليهود ، يدبرون لها .

ثم إن العداء بين الأوس والخزرج يمكن أن يكون مجالا فسيحاً للإصلاح .

وهذا النفر — هم طليعة الإسلام فى يثرب — يتحدثون عنه فيها ، فلم يمض عام حتى سمعت بالإسلام كل دار فى المدينة ، وخرج منها إلى الحج أثنا عشر رجلا من الذين أسلموا — فيهم الستة الذين كلهم الرسول ﷺ فى الموسم السابق — وعزموا على الإجتماع برسول الله ﷺ ، ليوثقوا معه أسلامهم.

بيعة العقبة الأولى

عن عبادة بن الصامت : بايعنا رسول الله ليلة العقبة الأولى أن لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا تزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف . قال : فإن وفيتم فلكم الجنة . وإن غشيتم من ذلك شيئا فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة له . وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة ، فأمركم إلى الله — إن شاء عذب ، وإن شاء غفر)(١) .

فانظر إلى هذا العهد — لا مطمع فيه لمحمد ولا غاية له من وراء ابرامه إلا تعريف الناس بخالقهم ، واستمساكهم بالفضائل وتجنبهم للمهلكات . لم يغرهم بجزاء دنيوى ، ولا يملك هو لهم جزاء . والجزاء عند الله بالنعيم أو الجحيم .

وأرسل النبى معهم مصعب بن عمير ليعلمهم الإسلام . وكل ما لديه ثروة من الكياسة والفطنة ، قبسها من محمد ﷺ ، واخلاص لله ، جعله يضحى بمال أسرته وجاهها فى سبيل عقيدته .. وهذا القرآن الذى يحمله يتخير من روائعه ما يفتح به القلوب .

(١) متفق عليه

بيعة العقبة الثانية

عاد مصعب بن عمير يخبر الرسول بالحال فى المدينة ، ويطلعه على ما لاقت الدعوة الإسلامية من ترحيب .. وقام نفر من المؤمنين يريدون الطواف بالبيت ويلتقون برسول الله ﷺ .

ولقد بلغ الإيمان أوجه فى هذه القلوب الفتية . وآن لها أن تنفس عن حماسها ، وأن تفك هذا الحصار الخانق المضروب حول الدعوة والداعية .

ولقد علموا من قبل ما لاقى محمد من اضطهاد ، وما عاناه المسلمون من تنكيل وتشريد .

قال جابر بن عبد الله : (فرحل إليه منا سبعون رجلا حتى قدموا عليه فى الموسم ، فواعدناه شعب العقبة ، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا ، فقلنا : يارسول الله علام نبايعك ؟ قال ﷺ : تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن تقوموا فى الله ، لا تخافون لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى ، فتمنعونى إذا قدمت عليكم — مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة .

فقمنا إليه . وأخذ بيده « أسعد بن زرارة » — وهو أصغر السبعين بعدى . فقال : رويدا يا أهل يثرب ، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وأن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة : وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف .

فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه ، وأجركم على الله .. وإما

أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله .

فقالوا : يا أسعد أمط عنا يدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها ، فقمنا إليه رجلا رجلا فبايعناه)(١) .

إنها جدية وتقدير للأمور من أسعد ، وفدائية وتضحية وتحمل للمسئولية من هؤلاء المؤمنين .

وخليق بنا أن نعرف ما لهذا الدستور من صلة بدستور البيعة الأولى. فهناك صلة بالله ، وتمسك بالفضائل .

وهنا تنفيذ السمع ، والطاعة ، فى العسر واليسر — لا يمنع من التنفيذ عقبة ، يتبنون الدفاع عن النبى من غير تسكف . ولا شطط ، يدافعون عنـــه فى حدود ما يدافعون عن أنفسهم وذويهم .

واختاروا من بينهم اثنا عشر نقيبا ، كانوا كالحواريين مع عيسى ابن مريم .

والحق أن روح اليقين والفداء والإستبسال — سادت هذا الجمع ، وتمشت فى كل كلمة قيلت ، وبدا أن العواطف الفائرة ليست وحدها التى توجه الحديث أو تملى العهود . كلا . فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم . والمغارم المتوقعة نظر إليها قبل المغانم الموهومة .

وهكذا جمع الإيمان بين مختلف الأوطان .

عن أبى مالك الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : (يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا ، واعلموا أن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء ، على منازلهم وقربهم من الله .

(١) رواه أحمد

فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله ، انعتهم لنا ، حلهم لنا — يعنى صفهم لنا — فسر وجه النبى بسؤال الأعرابى وقال : هم ناس من أفناء الناس ، ونوازع القبائل ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا فى الله وتصافوا ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلسون عليها . فيجعل وجوههم نورا ، وثيابهم نورا ، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون ، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)(١) .

الإيمان بالله ، والحب فيه ، والأخوة على دينه ، والتناصر باسمه — ذلك كله كان يتدافع فى النفوس المجتمعة فى ظلام الليل بجوار مكة السادرة فى غيها ، يتدافع ليعلن أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم . وسوف يمنعونه بأرواحهم ، فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء .

(١) رواه الحاكم وأحمد فى مسنده

الهجرة إلى المدينة

تحدث القرآن فى أكثر من موضع عن الهجرة . قال تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين) .

وتلك الآية تبرز لنا تآمر قريش على رسول الإسلام . ثم تأتى آيات أخر ترغب فى الهجرة (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ، أولئك يرجون رحمة الله) .

ثم ينتقل القرآن بعد الترغيب إلى إلقاء التبعة على المتخلفين عن الهجرة وإثبات الجزاء الأوفى لمن يبادرون بها (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيما كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا — فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا .

ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة . ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما) .

وللهجرة والمهاجرين اعتبار خاص ، يختلف تماما عن المؤمنين الذين لم يهاجروا (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض . والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا) .

وأخيرا يصور القرآن الهجرة بأنها معركة بين الحق والباطل ، انتصر فيها الحق مع عدم توافر أسباب النصر من القوة العددية ، واستراتيجية المكان ، وقوة السلاح (إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم) .

لقد تكررت كلمة « إذ » ثلاث مرات فى فقرة قصيرة من الآية ، وذلك فيما نتصور لإبطال كل أسباب النصر ، مع تحقق النصر .

أما قوته العددية فثانى اثنين ، ولو وجد فى العدد أقل من ذلك لقال .

وأما المكان الاستراتيجى — فإنه غار « ثور » ، وما أضيقه ، وبطء الحركة فيه .

وأما السلاح — فهو الشعور بمعية الله تسطع فى وجدانه (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) .

ولقد كان ﷺ قد رأى فى المنام دار هجرة المسلمين .

روى البخارى عن عائشة أن النبى ﷺ قال : (إنى أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان ، فهاجر من هاجر قبل المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله : على رسلك فإنى أرجو أن يؤذن لى .

فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبى أنت وأمى ؟ قال : نعم . فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السحر وهو الخبط أربعة أشهر .

قالت عائشة : فبينما نحن يوما جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة ،

قال قائل لأبى بكر هذا رسول الله ﷺ متقنعا فى ساعة لم يكن يأتينا فيها . فقال أبو بكر : فداء له أبى وأمى ، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر. قالت عائشة : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له ، فدخل فقال النبى ﷺ لأبى بكر أخرج من عندك ، فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبى أنت يارسول الله ؟ قال : فإنى قد أذن لى فى الخروج .

فقال أبو بكر الصحبة بأبى أنت يارسول الله ، قال رسول الله : نعم . قال أبو بكر : نخذ بأبى أنت يارسول الله احدى راحلتى هاتين : قال رسول الله : بالثمن ؟ . قالت عائشة : فجهزناها أحث الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها ، فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاقين ، قالت : ثم لحق رسول الله وأبو بكر بغار فى جبل ثور ، فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر وهو غلام شاب ثقف لقن ، فيدلج من عندهما بسحر : فيصبح مع قريش بمكة كبايت فلا يسمع أمرا يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة من غنم ، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء ، فيبيتان فى رسل وهو لبن منحتهما ورضيفهما حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث ، واستأجر رسول الله وأبو بكر رجلا من بنى الديل ، وهو من بنى عبد بن عدى هاديا خريتا ، والخريت الماهر بالهداية قد غمس حلفا فى آل العاص بن وائل السهمى ، وهو على دين كفار قريش فأمناه ، فدفعا إليه راحلتيهما ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل ، فأخذ بهم طريق السواحل .

قال سراقة بن جعشم : جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول

الله وأبى بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره ، فبينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج ، إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال : ياسراقة إنى قد رأيت آنفا أسودة بالساحل أراها محمدا وأصحابه .

قال سراقة : فعرفت أنهم هم ، فقلت له : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلانا وفلانا إنطلقوا بأعيننا ، ثم لبثت فى المجلس ساعة ، ثم قمت فدخلت ، فأمرت جاريتى أن تخرج بفرس ، وهى من وراء أكمة فتحبسها على ، وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت ، فخططت بزجه الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرس فركبتها فرفعتها تقرب بى حتى دنوت منهم فعثرت بى فرسى فخررت عنها ، فقمت فأهويت يدى إلى كنانتى ، فاستخرجت منها الأزلام ، فاستقسمت بها أضرهم أم لا ، فخرج الذى أكره ، فركبت فرس وعصيت الأزلام تقرب بى حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الإلتفات ، ساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها .

فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها عثان ساطع فى السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذى أكره ، فناديتهم بالأمان فوقفوا ، فركبت فرس حتى جئتهم ، ووقع فى نفس حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ، فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع ، فلم يرزآنى ولم يسألا فى إلا أن قالا ، إخف عنا ، فسألته أن يكتب لى كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من أديم .

ثم مضى رسول الله — فلقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله وأبا بكر ثياب بيض ، وسمع المسلمون بالمدينة بخرج رسول الله من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى

الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوما بعد ما أطالوا انتظارهم . فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته : يامعشر العرب — هذا جدكم الذى تنتظرون .

فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله صامتا ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله يحى أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله عند ذلك ، فلبث رسول الله فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليـلة ، وأسس المسجد الذى أسس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله ثم ركب راحلته ، فسار يمشى معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول بالمدينة ، وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مربدا للتمر لسهيل وسهل — غلامين يتيمين فى حجر سعد بن زرارة . فقال رسول الله حين بركت به راحلته : هذا إن شاء الله المنزل ، ثم دعا رسول الله الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله . فأبى رسول الله أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجدا وطفق رسول الله ينقل معهم اللبن فى بنيانه ويقول :

هذا الحمال لاحمال خيبر   هذا أبر ربنا وأطهر

ويقول :

إن الأجر أجر الآخرة   فارحم الأنصار والمهاجرة

حرم مشركو مكة الخير كله ، منذ جحدوا الرسالة ، وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن بها به ، ويبغونها عوجا .

وقد عاشت مكة فى بحبوحة من الحياة أمدا طويلا ، آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان . . فلما ظهر الإسلام — كفرت بأنعم الله ، وأعلنت أن مركزها — عاصمة للوثنية ، ومجمعا للأصنام ، ومثابة للحجيج . وما كان ذلك يتفق مع الرسالة التى تدور على التوحيد والإعتراف بالمنعم .

والأرض إن ضاقت بالمسلمين فى مكة - ففى المدينة سعة وحرية مكفولة

ولم تكن الهجرة فى مجموعة واحدة ، بل كانت لها طلائع تكتشف الطريق قبل مجىء القافلة . وهذا من التدبير المحكم والتخطيط الموفق للتخلص من مكايد قريش فى دار الندوة ، ولإقامة الوطن الجديد .

وحينما خرج الرسول مهاجرا — أمره الوحى (وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق . واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا

وقد أعد الرسول العدة فى تلك الرحلة . ولم يعتمد على مائدة تنزل له من السماء — يأكل منها . وقد كتم أسراره ، واستأجر دليلا خبيراً بطريق الصحراء وإن كان مشركا ، إلا أن الأمانة كانت متوافرة لديه . وليشرع للناس جواز التعامل مع غير المسلمين ما داموا أهلا لذلك التعامل . وأصر النبى أن يدفع للصديق ثمن الراحلة . إذ المقام مقام عبادة ، لا ينوب فيها أحد عن أحد .

واتفق مع أبى بكر على تفاصيل الخروج ، وتخير الغار الذى يأويان إليه . . تخيراه جنوبا فى اتجاه اليمن لتضليل المطاردين . وعرفت مهمة كل شخص .

وأوعز النبى عليه الصلاة والسلام إلى على بن أبى طالب فى هذه الليلة

الرهيبة أن يرتدى برده الذى ينام فيه وأن يتسجى به على سريره .

ثم واصل فى ساعة من النهار مسيره ، وما أشد حرارة الجو إذ ذاك .. إن أسفار الصحراء توهى العمالقة الآمنين . فكيف بركب مهدر الدم مستباح الحق ؟ .

وقد وصله الله سالما إلى دار هجرته ومستقر دعوته . فبدأ فى تنفيذ سياسته ، بحبب المهاجرين أولا فى مهجرهم .

عن عائشة قالت : (لما قدم النبى عليه الصلاة والسلام المدينة وعك أبو بكر و بلال ، فدخلت عليهما فقلت : ياأبت كيف تجدك ؟ ويابلال كيف تجدك ؟ وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرىء مصبح فى أهله   والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه يرفع عقيرته ويقول : —

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة   بواد ، وحولى إذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة   وهل يبدون لى شامة وطفيل ؟

قالت : فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك فقال : (اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة ، أو أشد . اللهم وصححها وبارك لنا فى مدها وصاعها ، وانقل حماها واجعلها بالجحفة)(١)

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ماجعلت بمكة من البركة)(٢)

وعن أبى هريرة قال : (كان رسول الله ﷺ إذا أتى بأول الثمر قال (اللهم بارك لنا فى مدينتنا وفى ثمارنا وفى مدنا وفى صاعنا ، بركة مع بركة .

(١) راه البخارى

(٢) رواه أحمد والبخارى

اللهم إن ابراهيم عبدك ونبيك وخليلك ، وإنى عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة وأنا أدعوك للمدينة بمثل مادعاك لمكة ومثله معه) . ثم يعطيه أصغر من يحضر من الولدان(١)

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى سائر الأنبياء ، والمرسلين ، والداعين بدعوتهم إلى يوم الدين .

دكتور / محمد عبد المنعم القيعى

(١) رواه مسلم .